الرواية في المغرب الأقصى

1– المرحلة التأسيسية: وتمتد زمنيا من تاريخ صدور أول عمل روائي إلى منتصف الستينيات، وبالضبط إلى سنة 1967، تاريخ صدور رواية (جيل الظمأ) لمحمد عزيز الحبابي. وأسميناها بالتأسيسية، لأن مجمل الأعمال المنضوية تحتها، وعددها تقريبا حوالي(28) عملا، يطغى عليها هاجس إرساء قواعد ممارسة روائية مغربية، تسد خصاص الموروث الثقافي العربي في هذا المجال، وتحاول محو آثاره المعرفية السلبية. على أنه إذا كان هناك شبه إجماع حول تاريخ نهاية هذه المرحلة، فإن بدايتها ظلت، مع ذلك، محط خلاف قوي بين الباحثين إلى اليوم. فمنهم من أرجعها لسنة 1957، تاريخ صدور (في الطفولة) لعبد المجيد بنجلون، ومنهم من ذهب لما هو أبعد وربطها بتاريخ صدور (الزاوية) للتهامي الوزاني سنة 1942، أو (الرحلة المراكشية) لابن المؤقت سنة 1924.

عرف ظهور الرواية العربية بالمغرب تأخرا ملحوظا مقارنة بتاريخ ظهورها في الشرق والغرب، وهو تأخر مضاعف، جعل من الأعمال الروائية الشرقية والغربية نماذج تحتدى: العربية عموما، مغربية كانت أو مشرقية، أمر طبيعي يجد تبريره في تخلف الشروط التاريخية الملائمة. لهذا كان طبيعيا أن تتصف أغلب أعمال هذه المرحلة، بما أسماه أحد النقاد بـ(الإذقاع الفني.. والمحاكاة الحرفية لبعض النماذج المشرقية المتجاوزة). كما هو الحال بالنسبة (لأمطار الرحمة) لعبد الرحمان المريني، و(غدا تتبدل الأرض) لفاطمة الراوي، و(بوتقة الحياة) للبكري السباعي، و(إنها الحياة) لمحمد البوعناني. مما جعل الذاكرة الثقافية الوطنية تسقط من مخزونها أغلب أعمال هذه المرحلة، باستثناء عناوين خمسة، نسوقها حسب ترتيبها الكرونولوجي، وهي:

. (الزاوية) للتهامي الوزاني (1942).

. (في الطفولة) لعبد المجيد بنجلون (1957).

. (سبعة أبواب) لعبد الكريم غلاب (1965).

. (دفنا الماضي) لعبد الكريم غلاب (1966).

. و(جيل الظمأ) لمحمد عزيز الحبابي (1967).

بعودتنا لهذه الأعمال وتفحصها، في محاولة لاستخلاص القاسم (أو القواسم) الفنية والفكرية المشتركة بينها. نلاحظ ما يلي:

أولا – امتزاج الروائي بالسير ذاتي: حيث لا يكاد يخلو عمل من الأعمال الخمسة السابقة من بعض آثار هذا المكون الخاص على المستوى الحكائي، وما موضوع (في الطفولة) و(سبعة أبواب) إلا دليلا على ذلك.

وهذه ظاهرة تستدعي البحث عن الأسباب الثاوية خلفها لمعرفة ما إذا كانت مؤشرا على ما يطبع البدايات عادة من خلط أجناسي، ينم عن سوء فهم لخصوصية الكتابة الروائية، أم إفرازا موضوعيا يرتبط بمعطيات المرحلة التاريخية المذكورة. علما بأنها ظاهرة عامة تتجاوز نطاق ما هو وطني محلي، لتطال البدايات الروائية الشرقية والغربية على حد سواء: (زينب) لهيكل، و(الأيام) لطه حسين، و(حياتي) لأحمد أمين، وغيرها. وهو ما يدل على تماثل كبير في شروط وملابسات البدايات الروائية في الغرب والشرق و المغرب.

ثانيا – حضور الآخر: وذلك بأشكال مختلفة، كطرف أساسي فاعل في معادلة الصراع الحكائي. حضور يجد سنده الموضوعي في الخصوصية التاريخية لهذه المرحلة المعروفة وطنيا وقوميا بكثرة المصادمات الحضارية وتنوع مظاهرها (الاستعمار، المطالبة بالاستقلال، التحدي الحضاري، والمثاقفة).

ثالثا – اعتماد قواعد الكتابة الكلاسيكية: وذلك على المستوى التقني المجسد لملامح الكتابة الروائية في هذه المرحلة؛ فالملاحظ أن أغلبها يستمد رصيده من مقومات الرواية الكلاسيكية، المعروفة بهيمنة الحكاية، والاهتمام الكلي بالحبكة الروائية، بالإضافة للمحافظة المطلقة على خطية السرد، واعتماد السارد العليم، وكثرة التدخلات المباشرة.

2 – المرحلة الواقعية: وتمتد زمنيا من نهاية المرحلة السابقة إلى منتصف السبعينات تقريبا، وتتميز من الناحية السياسية بحصول المغرب على الاستقلال سنة (1956)، ودخوله مرحلة الجهاد الأكبر لمحو آثار التخلف والاستعمار. خصوصا بعد الآمال الوردية العريضة التي علقها المغاربة على هذا الحدث السياسي الهام طوال مرحلة الجهاد الأصغر. لدرجة أصبح معها معادلا موضوعيا لبلورة كافة الأهداف التنموية الأخرى،آمال ظل معظمها معلقا، أو في حكم المعلق، بفعل معطيات تاريخية عديدة ومتشابكة. مما انعكس في شكل إحباط كبير أصاب نفوس الجماهير الشعبية العريضة، فاحتدم الصراع المغربي/المغربي، بين الفئات المستفيدة من الوضع الجديد والفئات المحرومة.

إذا أضفنا لذلك كله، الآثار السلبية الفادحة لهزيمة(1967) النكراء، وما أحدثته من رجة فكرية ونفسية عنيفة في كيان جميع الشعوب العربية، في ظل ظرفية تاريخية مشحونة بصراع إيديولوجي قوي بين المعسكرين المهيمنين على الساحة الدولية آنذاك. أمكننا فهم سر اعتماد هذا التاريخ نقطة تحول جذري في مسار الكتابة الأدبية المغربية عامة، والروائية منها على الخصوص. وفي هذا الإطار يكفي التذكير ببعض المفاهيم –النقدية– المهيمنة على الساحة الثقافية آنذاك، (كالصراع الطبقي/الالتزام/المثقف العضوي/ اليمين/ اليسار/ التقدمي/ الرجعي/الثقافة التقليدية/والثقافة الثورية)، لأخذ فكرة واضحة عن طبيعة هذه المرحلة. وهو ما انعكس على الكتابة الروائية المغربية، التي وجدت ضالتها المنشودة في –الواقعية–، باعتبارها الاتجاه الإبداعي الملائم الكفيل بتحقيق الرهانات التاريخية المطروحة، كما تعكس ذلك بجلاء أعمال كل من مُحَمَّد زفزاف، عبد الكريم غلاب، مبارك ربيع، ومُحَمَّد شكري.

وقد تميزت هذه الأعمال من الناحية الفنية والفكرية بطغيان مجموعة من السمات، نجملها فيما يلي:

- هيمنة السياسي على الثقافي

- إعلاء الجوانب الفكرية على الفنية.
- إعطاء الأولوية لوظيفة الأدب على حساب طبيعته.
- اعتبار الاجتهادات الفنية مجرد محاولات إبداعية شكلية فجة.
- حضور بعض القضايا القومية (كقضية فلسطين مثلا).
- حضور التاريخ المغربي الحديث والمعاصر كتيمة روائية بارزة.
- الحضور المكثف لبعض الظواهر الاجتماعية التي تمس الفئات المحرومة.
- ظهور البطل الإشكالي.
- إسناد البطولة لمثقفي البورجوازية الصغيرة والمتوسطة.
- استخدام اللغة البسيطة الخالية تقريبا من كل ملامح البيان العربي الكلاسيكي.
- اعتماد الشروط الموضوعية في تحريك الأحدث الروائية، واستبعاد الصدف والمفاجآت المعمول بها سابق.

3 – مرحلة التجريب: وتتميز على الصعيد السياسي بالعديد من الأحداث الهامة، الداخلية منها والخارجية. كان لها الوقع الكبير في تغيير مسار الأدب والفكر المغربي، بعيدا عما كانا عليه في السابق. فعلى المستوى الداخلي تزامنت بداية هذه المرحلة وحدث المسيرة الخضراء سنة (1975)، لتحرير الصحراء، واستعادة الأقاليم الجنوبية المحتلة من طرف الاستعمار الإسباني.

أما على المستوى الخارجي، فقد شهدت هذه المرحلة بداية انهيار المعسكر الشرقي، بكل ما يحمله ذلك من دلالات عميقة على فشل الإيديولوجية الاشتراكية في تحقيق الآمال العريضة المعلقة عليها في معظم أرجاء المعمور. كما عرفت أيضا تطورات معرفية كبيرة عمت مختلف حقول الدراسة الأدبية، خصوصا بعد الثورة اللسانية وما رافقها من اهتمام، غير مسبوق، بالجوانب الفنية للنصوص، بعيدا

عن كل الاعتبارات الخارجية الغريبة عن حقل أدبية الأدب. وهنا لا بد من الإشادة بالدور الهام الذي لعبته الجامعة المغربية في أشاعة المفاهيم النقدية الحديثة، وتقريبها من عموم المثقفين، عن طريق الترجمة المباشرة من المصادر الغربية، دونما حاجة للوساطة المشرقية، كما كان الأمر سابقا.

في ظل هذه الشروط السوسيوثقافية وغيرها، ظهرت على السطح تصورات أدبية جديدة تدعو، من بين ما تدعو إليه، تحديث الكتابة الروائية العربية، عن طريق تجاوز القوالب التعبيرية –القديمة المتهالكة– واستبدالها بأساليب جديدة أخرى، أكثر ملاءمة للوضع الثقافي الراهن: وهو ما أدى لقيام ما أصبح يعرف آنذاك، وإلى اليوم، بظاهرة التجريب، بكل رهاناتها الإبداعية الهادفة للبحث عن أنسب التقنيات السردية الكفيلة بإعادة الانسجام والتوازن المفقودين للكتابة الروائية المغربية في خضم النزاعات الإيديولوجية السابقة.

ويمكن تلخيص أهم مرتكزات هذه الدعوة فيما يلي:

- تجاوز عن الأنماط الروائية السائدة
- تجاوز تقنيات الحكي الكلاسيكي
- تكسير خطية السرد
- تنويع الرؤى السردية، وهدم سيطرة السارد العالم بكل شيء
- استغلال التراث
- اعتماد البعد العجائبي
- الحد من أهمية الحكاية
- تفجير اللغة

- تكسير الحدود بين الأجناس والحد من هيمن معيار صفائها المزعوم. إلى غير ذلك من الآليات التعبيرية الأخرى الهادفة لتكسير القوالب القديمة، وتوسيع هامش تحرك القارئ للسماهمة بفعالية أكثر في إغناء الممارسة الروائية والدفع بها نحو آفاق أرحب.

و تجدر الإشارة إلى أنه رغم الحماس الكبير الذي واكب هذه الدعوة من البداية إلى اليوم، فإنها ما زالت مع ذلك تواجه بعض الانتقادات، تحول دون تحقيق الإجماع المنتظر حولها. مما يفسر استمرار تشبث بعض الروائيين المغاربة الكبار باتجاههم الواقعي، (غلاب، زفزاف، ربيع، وشكري..). موقف يمكن إرجاعه لأسباب عديدة، نذكر منها، على سبيلا المثال لا الحصر:

1 – الاضطراب الواضح في تحديد مفهوم التجريب، لدرجة تبعث على الاعتقاد بأن لا شيء يوحد بين أنصار هذه الدعوة سوى المصطلح. أما فيما عدا ذلك فكل واحد يعطيه ما شاء من حمولات دلالية قد تصل أحيانا حد التناقض الصارخ. متجاوزا بذلك كل الخطوط الإبداعية المعروفة أو المطلوبة في الممارسات الإبداعية الواعية والمسؤولة، لتتحول لمجرد ذريعة براقة، أو مزايدة مكشوفة، لإضافء الشرعية على بعض الكتابات العشوائية الفاقدة للحد الأدنى من الروائية.

2 – السقوط في التغريب: فعلى الرغم من التبريرات –الموضوعية– العديدة المصاحبة لهذه الدعوة، لا زال البعض يصر على اعتبارها مجرد حلقة جديدة في مسلسل الدعوات التغريبية المعروفة، ما دامت تستمد أغلب مقوماتها النظرية من خلفيات مرجعية غربية واضحة. وبذلك تخطئ بدورها طريق الأهداف المرسومة في البداية، ما دامت تستمر في النظر، كسابقاتها، لقضايانا القومية والمحلية، بعيون غيرية غربية تاريخيا.

3 – التجريب للتجريب: إن تغييب الشروط التاريخية الموضوعية الضابطة لقواعد الكتابة الروائية التجريبية وأهدافها، ترك المفهوم لدى البعض فضفاضا مفتوحا على كل –الاجتهادات– النظرية المختلفة المفرغة أحيانا من أي غاية محددة. ليتحول الرهان في النهاية لدعوة فنية مفتوحة تتوخى التجريب للتجريب، ضاربة عرض الحائط بالعلاقة الجدلية الوطيدة القائمة بين الشكل والمضمون. وهو

ما لا يتلاءم تماما، حسب البعض، ومعطيات شرطنا السوسيوثقافي الخاص، وتحدياته التاريخية الجسيمة الراهنة ومع ذلك، فرغم كل الاعتراضات السابقة، لا بد من الاعتراف بأن الرواية المغربية شهدت في هذه المرحلة الثالثة تحولات كمية وكيفية هامة، تمثلت في ارتفاع حجم الإصدارات السنوية، وما رافقها من تلوينات فنية كبيرة، أضفت على مشهدنا الروائي العربي ثراء لافتا يتجاوز حداثة سنه بكثير، مما يبشر بغد مشرق واعد في هذا المجال.

ب – رهانات الرواية المغربية:

من خلال العرض السابق يمكن استخلاص مجموعة من الملاحظات المحددة بشكل أو بآخر لأغلب رهانات الرواية المغربية في مختلف مراحلها التاريخية. وهي ملاحظات تتوزع بحكم طبيعتها لثلاث مجموعات تتفاعل فيما بينها لرسم معالم مختلف هذه الرهانات وتحديد أبعادها:

1 – ملاحظات خارجية: وتشمل كل الخواص المرتبطة بالمعطيات الخارجية الفاعلة من بعيد في تأطير توجهات الكتابة الروائية المغربية ورسم رهاناتها الفكرية والجمالية، بغض النظر عن تبايناتها النوعية الداخلية (تاريخية، سياسية، ثقافية، وحضارية..) من ذلك مثلا:

. أن الرواية المغربية، بحكم انتمائها القومي، تشكل، بجانب مثيلاتها القُطْرِية الأخرى، جزءا لا يتجزأ من الرواية العربية ككل. مما يجعلها تتحمل، بالإضافة لأعبائها الإقليمية الخاصة، أعباء جهوية عامة مختلفة، تتمثل في التعبير المشترك عن نفس القضايا (فلسطين، الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والدفاع عن الهوية العربية.

. أن الرواية المغربية كالعربية، جنس أدبي حديث دخل الساحة الإبداعية المشرقية متأخرا مع الحملة النابوليونية على مصدر سنة 1798. وهو ما يعني بعبارة أخرى أنه جنس دخيل، ذو أصول غربية، يفرض على الروائيين العرب عموما، والمغاربة خصوصا، جهودا مضنية مضاعفة لاستنباته وتأصيله في التربة المحلية، كخطوة أساسية أولى على طريق طي مراحل التخلف، وتحقيق التميز المنشود. الأمر

الذي يمكن معه اعتبار الكتابة الروائية العربية، من هذه الناحية، إحدى واجهات تحدياتنا الحضارية الراهنة.

2 – ملاحظات داخلية: وتضم المعطيات الداخلية المحددة لملامح الوضع الاستثنائي المميز للرواية المغربية عن غيرها من أعمال باقي الأقطار العربية الأخرى، لما لذلك من تأثير كبير في ضبط المواصفات، الكمية والكيفية، الخاصة برهانات كل قطر. منها:

. الظهور المتأخر للرواية المغربية، مقارنة بشقيقتها المشرقية، المتأخرة بدورها عن الغربية، نموذجنا المشترك. أفرز إحساسا مضاعفا بالنقص لدى الروائيين المغاربة، تطلب جهودا استثنائية مضاعفة لتجاوزه، وتحقيق الرهانات الخاصة الملائمة لذلك، كما هو واضح من مختلف مراحل تاريخ هذه الممارسة على الصعيد الوطني.

. أن الرواية المغربية، شأنها شأن كافة الممارسات الفكرية، مشروع إبداعي طويل زمنيا، على حداثته النسبية. فهو يمتد، في أضعف الأحوال، لما يناهز نصف قرن تقريبا. بكل ما عرفه العالم، ومعه المغرب، طوال هذه المدة، من أحداث، داخلية وخارجية، سياسية وثقافية، كان لها، دون شك، الأثر القوي، لا في تسطير بعض الرهانات فقط، بل في حذف وتعديل أخرى أيضا، بما يواكب هذه المستجدات، ويضفي على مشروعنا الروائي، في الوقت ذاته، طابعا حيويا خاصا، يستحيل معه الحديث عن رهانات محددة قارة.

. أن الرواية المغربية، شأنها شأن كافة الممارسات الفكرية، مشروع إبداعي طويل زمنيا، على حداثته النسبية. فهو يمتد، في أضعف الأحوال، لما يناهز نصف قرن تقريبا. بكل ما عرفه العالم، ومعه المغرب، طوال هذه المدة، من أحداث، داخلية وخارجية، سياسية وثقافية، كان لها، دون شك، الأثر القوي، لا في تسطير بعض الرهانات فقط، بل في حذف وتعديل أخرى أيضا، بما يواكب هذه المستجدات، ويضفي على مشروعنا الروائي، في الوقت ذاته، طابعا حيويا خاصا، يستحيل معه الحديث عن رهانات محددة قارة.

. أن الرواية المغربية، مغربية بكل ما في الكلمة من معنى، أي أنها تعكس الخصوصية المحلية بمختلف تجلياتها، الثقافية، السياسية، والاجتماعية. لذلك فلا غرابة إذا ما وجدنا الرهان الوطني يحتل صدارة ترتيب هذه الرهانات، كما تعكس ذلك، بأشكال ودرجات مختلفة، كل النصوص الروائية المغربية.

3 – ملاحظات خاصة: أن الرواية المغربية باعتبارها مشروعا إبداعيا مشتركا بين فاعلين مختلفين، اجتماعيا، ثقافيا، جنسيا، عمريا، سياسيا ولغويا. شهدت قاعدة روادها اتساعا متزايدا شمل بعض المجالات المعرفية التي اعتبرت، إلى وقت قريب، بعيدة نسبيا عن دائرة الأدب وهمومه اللامتناهية، كالتاريخ، الفلسفة والقانون.. مما أثر، بشكل كبير، في إثراء الساحة الروائية الوطنية وإخصابها. لذلك فنحن حين نركز، في معرض حديثنا عن رهانات الرواية المغربية، على هذه الملاحظات الخاصة بالروائيين، فلاقتناعنا الراسخ بما لهذه العوامل الشخصية من أثر بالغ في تحديد الكيفية الخاصة لبلورة الرهانات الروائية الكبرى، ورسم الملامح المميزة للتجارب المنضوية تحتها.

عموما، وبغض النظر عن التمايزات الداخلية للتجارب المساهمة في هذه الممارسة الإبداعية، يمكن إجمال مختلف هذه الرهانات في النقط التالية:

. التعبير عن الواقع المغربي بمختلف تجلياته (اجتماعية/سياسية/حضارية/تاريخية..).

التعبير عن قضايانا القومية المشتركة، فكرية، السياسية، والحضارية (فلسطين/الهوية الحضارية/صراع الشرق والغرب..).

. المساهمة في ترسيخ الكتابة الروائية، كجنس أدبي دخيل، في التراث العربي.

. إيجاد كتابة روائية مغربية متميزة، تجسد الخصوصية المحلية شكلا ومضمونا.

. العمل على تدارك السبق المشرقي، والغربي أيضا، في هذا المجال.

. إضافة للرغبة في التعبير عن بعض الهموم والانشغالات الذاتية الخاصة، في بعدها الإنساني العام.